# البنى الثقافية

## تمهيد

للبنى الثقافية دور محوري في تشكيل السياق المجتمعي لحال المرأة في الوطن العربي.
بداية، تشكل التأويلات الدينية مجالا للصراع في موضوع مكانة المرأة في المخيلة العامة وأنماط السلوك السائدة. ومن ثم يمثل الموروث الديني واحدا من أهم محددات المرجعية الثقافية للسياق المجتمعي.
كما يساهم الإنتاج الفكري العربي الناشئ في حقبة النهضة العربية، في عملية تشكيل الوعي الجمعي في المجتمعات العربية حيال مكانة المرأة. ومن ثم، سيناقش هذا الفصل، الخاص بشريحة البنى الثقافية في السياق المجتمعي لحال المرأة، أثر الموروث الديني، والإنتاج الفكري العربي، على أوضاع المرأة في البلدان العربية في الوقت الراهن.

وهناك تجليات ثقافية أخرى غرفت من المصدرين السابقين، ومن مرجعيات أخرى متعددة. ولذلك نعتمد أيضا في فحص البنى الثقافية، على مجموعة من المحاور المؤثرة في الوعي والسلوك، مثل الثقافة الشعبية والإبداع الأدبي والفني، والإعلام.

**الموروث الديني التقليدي ينتصر لقيم التراتب ويعززها**

## النص والتأويل

نقترب هنا من المرجعية الدينية الإسلامية، لنتبين كيفية تصورها للإنسان وللمجتمع. وقبل تقديمنا لصورة المرأة ونظام علاقاتها بالرجل كما تبلور في المنتوج الثقافي الإسلامي، نشير إلى أن الثقافة الاجتماعية الدينية في التاريخ العربي الإسلامي لا تحيل إلى النصوص الموسومة بالقداسة في الذاكرة الجماعية للمسلمين، بل إنها تشير أكثر من ذلك إلى التأويلات التي أنجزت حول محتوى هذه النصوص في صيغها وتجلياتها المختلفة. كما تحيل إلى التقاليد التي تم ترسيخها للمحافظة على نظام محدد للأسرة والمجتمع. إنها تقدم التمثلات والتصورات ومختلف أشكال التعقل التي أنتجت خلال مراحل التاريخ المذكور (أركون، بالفرنسية، 1984: 12)، (فهمي جدعان، 1985: 442).

وإذا كانت رسالة الإسلام تضمنت جملة من القواعد الكبرى في مسألة ترتيب نظام الكون والمجتمع، فإن لهذه القواعد العامة أكثر من وجه. ذلك أن عمليات التأويل التي يقوم بها المتلقى تخضع لمقتضيات التطور الذي يحصل داخل المجتمع، ويحصل في مناهج الفهم وقراءة النصوص.

والمتصوَّر، بناء على تطور أنظمة المعرفة والتأويل كما تبلورت في الفكر المعاصر، أن المنتوج النظري المؤوِّل لنص محدَّد لا يكافئ بصورة تامة روح المحتوى المتضمن في النص، بل يتحول بفعل آليات التفكير المساعدة في عملية إنتاج المعاني إلى وجه آخر من أوجه الممارسة النظرية. إنه يصبح تأويلاً، أي جهداً في التعقل والفهم لا يصح أن نضعه في منزلة النص الأول. ولأن التأويل عبارة عن عملية تفكّر تجري في التاريخ وداخل المجتمع وبوسائل المعرفة المتاحة، فإنه يصبح جزءاً من نظام الأفكار داخل المجتمع، يعتريه ما يعتري الأنظمة التاريخية الرمزية في التاريخ من علامات التحول والفساد.

## الكليات والفروع، في مشكلات التأويل

نجد في نص القرآن الكريم مجموعة من الآيات المحدِّدة لرؤية متكاملة في النظر إلى الإنسان والمجتمع والطبيعة والتاريخ. ومن المؤكد أن هذه الرؤية شكلت بمعيار التاريخ في حقبة بروزها نقطة تحول كبرى في تاريخ المجتمع العربي، حيث عملت على نقد وتجاوز كثير من العادات والتقاليد

إن الثقافة الاجتماعية الدينية في التاريخ العربي الإسلامي لا تحيل إلى النصوص الموسومة بالقداسة في الذاكرة الجماعية للمسلمين، بل إنها تشير أكثر من ذلك إلى التأويلات التي أنجزت حول محتوى هذه النصوص في صيغها وتجلياتها المختلفة. كما تحيل إلى التقاليد التي تم ترسيخها للمحافظة على نظام محدد للأسرة والمجتمع

الإطار 1-6

**فهمي هويدي: الأصل في الإسلام هو المساواة**

ثمة أمور ثلاثة ينبغي أن تظل حاضرة في وعي الباحث باستمرار، إذا ما أراد أن يحتفظ بتوازنه وموضوعيته في قراءته لوضع المرأة من المنظور الإسلامي. وهذه الأمور هي:

أولا: إن مسألة المرأة ينبغي ألا تقرأ أو تدرس بمعزل عن منطلقات وركائز رسالة الإسلام التي تضفي على كل المخلوقات حرمةً وحصانة، وتعتبر أن لكل كائن نصيبا من الاحترام. فكل مخلوقات الله – طبقاً للنص القرآني – "أمم أمثالكم" (الأنعام، 38)، بما فيها الدواب والطيور وغير ذلك من الكائنات التي تعيش في البر والبحر، وهي تتعبد لله تعالى (...) ومن بين تلك الكائنات، يعد الإنسان مخلوق الله المختار وخليفته في إعمار الأرض. وهذه المكانة الخاصة يتمتع بها كل إنسان، ذكرا كان أم أنثى، باعتبار أن حق الكرامة منصوص عليه في القرآن لكل بني آدم، بغض النظر عن جنسهم أو عرقهم أو دياناتهم.

ثانيا: إن التقاليد هزمت التعاليم في الخبرة العربية بوجه أخص. ذلك أن العصر الإسلامي الأول – الراشدي على وجه التحديد – شهد النقلة الكبرى في وضع المرأة، وحررها من آثار الجاهلية التي حقرت من شأنها، حتى لم تتردد في "وأدها" خلاصا من عار وجودها. ولكن الحقبة اللاحقة شهدت تراجعات عدة على ذلك الصعيد، ضمن ما شهدته الأمة من انتكاسات في أوجه الحياة الأخرى. وكانت النتيجة أن تآكلت مكتسباتها حينا بعد حين، حتى ظهرت بصورة نسبية فكرة "الوأد"، مرة أخرى، في صيغة رمزية وليست مادية. فاستعادت المجتمعات في حقب التردي تقاليد الشعور بالعار من وجود المرأة ومن أي حضور تمثله، سواء كان ذلك في أنشطة الحياة الاجتماعية والعامة أو في أداء الصلوات والمساجد.

ثالثا: أن الأصل في أحكام الإسلام هو المساواة بين الرجل والمرأة، إلا ما بيَّنت النصوص اختصاص أحدهما به وتميزه فيه، لأسباب لا تتعلق بالذكورة أو الأنوثة، وإنما تتعلق أساسا بالمسئولية الاجتماعية والوضع القانوني. ولا تخفى هنا دلالة النص القرآني الذي تحدث عن أن الطرفين خُلقا من نفس واحدة "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء" (أول آية في سورة النساء). وقد نقل الرازي عن أبي مسلم أن معنى خلق "منها زوجها"، خلق من جنسها فكان مثلها (محمد رشيد رضا، 1973:266). لذلك فالحقيقة المهمة التي تسجلها الآية أن أصل البشر زوجان مخلوقان من جنس واحد أو مادة واحدة. فكأن الآية حسب هذا التفسير ابتغت أن تبرز فكرة التماثل والتساوي، وتضرب فكرة التميز والمفاضلة بين شقي الإنسانية (راشد الغنوشي، 2000:9) إذ يتساويان في الأصل. فمن المسلم به أنهما يتساويان في حق الحياة والحق في الكرامة باعتبارها من الحقوق الأساسية لكل البشر في الإسلام. ثم إنهما يتساويان في المسئولية: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (التوبة، 71).

ولذلك، فإنهما يتساويان في التكليف الشرعي والجزاء الأخروي: فاستجاب لهم ربهم "إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض" (آل عمران، 125)– وعد الله المؤمنين والمؤمنات "جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن..." (التوبة، 72)– و"ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أن يكون لهم الخيرة من أمرهم..." (الأحزاب، 36)– يتساويان أيضا في الجزاء، حيث تتحدث آيات الحدود عن السارق والسارقة (المائدة، 38) والزانية والزاني (النور، 2). يتساويان أيضا في أهلية التصرفات والتعاقدات المالية. فكل منهما، إذا ما كان عاقلا ورشيداً، له شخصيته القانونية الكاملة، التي تعطيه حق التصرف فيما يملكه ملكا حراً بالبيع والهبة والوصية والإيجار والتوكيل والرهن والشراء، وغير ذلك من التصرفات المالية. إذ القاعدة أنه: "للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن" (النساء، 32). ولا يعطي عقد الزواج في التشريع الإسلامي أي حق للزوج في أن يتدخل في أمور أو تصرفات زوجته المالية، بدعوى أن له حق القوامة عليها، لأن ذلك الحق شخصي لا مالي، وبالتالي فانه لا يعطيه أي ذريعة للتدخل في تصرفاتها المالية.

**"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء" (النساء، 1)**

المخلة بشروط إنسانية الإنسان، وبنت بدائلها المناسبة لمستويات تطور المعرفة وتطور المجتمع في التاريخ العربي والتاريخ العالمي المواكبيْن لزمن تبلورها.

ويمكن تشخيص المعالم الكبرى لهذه الرؤية في السور الآتية، على سبيل التمثيل لا الحصر: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير" (الحجرات، 13)؛ "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء" (النساء، 1) "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا" (سورة الأحزاب، 72).

نقرأ في هذه السور ما يُستدل به على الطابع العام الذي اتخذته الأحكام القرآنية في موضوع أصل الإنسان وطبيعته، ومسألة تكافؤ العلاقة بين الجنسين. وهو ما يؤكد الطابع المتسامي لنظرة القرآن للإنسان. ونقف فيها كذلك على مبدأ تماثل الخلق، ومبدأ مشاركتهم جميعاً في الحياة بالتواصل والتعاضد فيها بينهم (سورة الحجرات)، ومبدأ امتحان الخالق لمخلوقاتِه، وجرأة الإنسان، ذكراً وأنثى، المتمثلة في قبوله بمبدأ المغامرة في مواجهته لمصيره (سورة الأحزاب).

إن المبادئ العامة المتضمنة في هذه السور،

وفي غيرها مما لا يتسع المجال هنا لعرضه ولا تفصيل القول فيه، تسمح بترتيب الملامح الكبرى لنظام اجتماعي يستجيب للأهداف التي ارتضتها الجماعة الإسلامية، من أجل عيش قائم على التكامل والتوافق، مع الإقرار والاعتراف بالمساواة والندّية بين بني الإنسان، ذكوراً وإناثاً. إلا أن كثيراً من الفقهاء وضعوا النماذج التي سقناها من السور القرآنية في درجة أدنى في سلم النظر التأويلي، وذلك بالمقارنة مع سور أخرى اعتنت بالتشريع لتفاصيل جزئية في موضوع علاقة الرجل بالمرأة. وبدلاً من تقريب السور الفرعية من روح السور التي اعتنت بالمبدئي والعام، استُعملت سور التكافؤ والمساواة لتبرير التراتب وشرعنته.

## التقنين الفقهي يشرع لعلو مكانة الرجل

يحتل التقنين الفقهي المتعلق بأوضاع النساء، كما تبلور في المذاهب الفقهية الإسلامية، مكانة استراتيجية في الثقافة الإسلامية المسوّغة لمراتبية العلاقة بين النساء والرجال. فقد بنت جهود التقنين الفقهي ما أضفى على نظام المجتمع طابعاً مشروعاً وعد مطابقاً لروح رسالة الإسلام. وترسخت شرعية هذا المنتوج بفعل السلطة المعرفية التي كان يتمتع بها الفقهاء، وبحكم انخراطهم في دواليب السلطة، حيث كان يتم اللجوء إليهم لا في موضوع ترتيب ملف الأحوال الشخصية فحسب، بل في مختلف شؤون المجتمع والحياة (نائلة السيليني، ورقة خلفية للتقرير).

يمكن القول هنا إن المنظور الذكوري في تاريخ المجتمعات الإسلامية اخترق مبدأ التكريم الإلهي للإنسان (للمرأة والرجل)، وركب كل ما يتيح إمكانية تعزيز التمييز والتمايز. بل إنه اتجه لمنح هذا التصور صيغة الإطلاق. وهكذا ألحقت اللعنة الأبدية بجنس النساء، وحررت عشرات الأحاديث في دائرة من التأويل الهادف إلى شيطنة المرأة وتحويلها إلى شر مستطير وفتنة ماحقة.

استخدم الفقه الإسلامي في عمليات التشريع معطيات الكتاب والسنة، لكنه استعمل قبل ذلك وبعده ما اعتبر أنه مقتضيات "المجتمع المتوازن"، الذي يتجه للتقنين لأحواله الشخصية. وقد جاءت أحكام الفقه الإسلامي في موضوع المرأة موصولة بأوضاع المجتمع الإسلامي في أزمنة تبلور هذه الأحكام. وتم العمل على تركيب المُنجَز الفقهي في تنوعه، بهدف حماية أخلاق التراتب وقواعد التمييز بين النساء والرجال.

وقد ساهمت التأويلات الفقهية المتبلورة في مذاهب الفقه الإسلامي في إنشاء جملة من القواعد المقرة بمبدأ التمييز بين الجنسين. وتم تحويل محتوى السور التي تقر بالقوامة والولاية للرجل، ومبدأ نصف الميراث للبنت، إلى مبادئ كلية وعامة، مع أنها ليست كذلك، لأن محتواها يشير إلى قضايا فرعية. بل إنها أُسقطت على علاقة المرأة بالرجل في مختلف الأوضاع وبصورة عامة، بهدف ترسيخ مبدأ التمييز بين الجنسين. كما تمت تزكية السور الفرعية بالسنة النبوية، حيث وظف سجل كبير من الأحاديث المنحولة والضعيفة السند بهدف التنقيص من إنسانية المرأة. وترتب على عمليات الاستعمال المذكور تحويل الصورة الإيجابية للمساواة والندية والتكريم القرآني للإنسان، إلى جملة من الأحكام المتناقضة، والقائمة على التمييز بين الكامل والناقص، الأصل والفرع، البالغ والقاصر، المقوَّم والأعوج (فهمي هويدي، ورقة خلفية للتقرير)، (عبد الهادي بوطالب، 2005: 59-65).

اعتمدت إستراتيجية التأويل الفقهي المشرِّعة لدونية المرأة على مبدأين اثنين: يتمثل أولهما في إغفال الآيات القرآنية الكلية المقرة بالمساواة والتكريم، أو توظيفها لتبرير الآيات الفرعية، ضمن حِجَاج التسويغ الموظَّف في عمليات التقنين المقرة بالتراتب بين الجنسين. ويتمثل المبدأ الثاني في تناسي روح التسامي واليسر المحددة لنمط القول القرآني في عمومه.

تخفي صرامة التشريع في الفقه الإسلامي خلفيات أخرى تستمد قوتها من كيان المجتمع العربي الإسلامي نفسه، سيما وأن الفقهاء قرأوا المنصوص عليه بأحكام العرف. ويُعزى ذلك إلى إحساسهم بأن الإقرار بغيرها يقطع انتظام المجتمع عن صيرورته المعزِّزة للتماسك الاجتماعي المطابق في تصورهم لـ "نظام الطبيعة".

كانت أولوية الرجل حاضرة ومرجحة دوماً في المباحث الفقهية المتصلة بالمرأة، وهي أولوية حصَّنت نفسها بقراءة للقرآن يغلب عليها طابع الانحياز للرجل. وتكشف معطيات كتب المناكح شبكة المفاهيم والتصورات ومختلف أنماط الحِجاج الموظَّف لمنح الرجل تزكية تَهبُه مكانة أعلى من مكانة المرأة داخل المجتمع. فالرجل هو الأب أو الزوج أو الابن أو أي ذكر من عصبة المرأة. وقد ظل الفقهاء، في الأغلب الأعم، أوفياء لهذه النظرة التي بنت أحكاما عديدة في مجالات المجتمع المختلفة، مما ضاعف وعقَّد إمكانية التفكير في

اخترقَ المنظور الذكوري في تاريخ المجتمعات الإسلامية مبدأ التكريم الإلهي للإنسان (للمرأة والرجل)

ساهمت التأويلات الفقهية المتبلورة في مذاهب الفقه الإسلامي في إنشاء جملة من القواعد المقرة بمبدأ التمييز بين الجنسين

كانت أولوية الرجل حاضرة ومرجحة دوماً في المباحث الفقهية المتصلة بالمرأة، وهي أولوية حصَّنت نفسها بقراءة للقرآن يغلب عليها طابع الانحياز للرجل

بناء ما يسمح بتحقيق التكافؤ في علاقات الرجال بالنساء داخل المجتمع. (نائلة السيليني، ورقة خلفية للتقرير). وإن لم يخل الأمر من تفسيرات فقهية مستنيرة، (إطار 6-2).

لا يعني هذا أن هيمنة الرؤية الذكورية في تفسير القرآن وإعداد مدونات لم تكن تجد من يختلف معها في بناء تصورات مضادة، تصورات تمارس عمليات في التعقل كاشفةً ثراءَ المعاني الأكثر إنسانية في موضوع ترتيب نظام العلاقة بين الرجال والنساء في المجتمع العربي الإسلامي. بل إننا نجد في تراثنا وفي بعض مراحل تطور الثقافة الإسلامية في عصورنا الوسطى، مجموعة من الإرهاصات والحدوس والمواقف التي تذهب بعيداً في اتجاه اختراق السائد والمهيمن في ثقافتنا الإسلامية. فقد انتقد أبو الحسن البصري تعدد الزوجات، ورفض الاسماعيليون مبدأ التعدد، واعتبر ابن عربي (560 هـ–638 هـ) المرأة في بعض نصوصه كائناً يعلو على الصور الدونية المتداولة عنها (فروزان الراسخي، 2004:161)، (إدريس حمادي، 2003:63–80).

نستطيع إذن أن نتحدث عن نصوص مُقاوِمةٍ لهيمنة الرؤية الذكورية التي تضع الرجال فوق النساء درجات، وعلى الرغم من أن هذه النصوص لا تتجاوز عتبة الكشف عن مستويات التفاعل والتوتر التي ظلت سمة ملازمة لثقافتنا الإسلامية، فإنها تجسد مشروع إمكانية التجاوز، كما تشخص مشروعية الاختلاف في الرأي. ويتجه بعض دعاة الاجتهاد اليوم من الفقهاء المستنيرين والعلماء، الذين لا يغفلون سنن التغير والتطور في المجتمع، إلى بلورة رؤية متسامية في موضوع نظرة القرآن لمختلف ظواهر المجتمع ومتغيرات التاريخ ، (عبد الصمد الديالمي، 2000:79–83).

تعلق الأدبيات الفقهية آيات المساواة والتكريم الواضحة في النص القرآني، لتستحضر في مختلف صور التشريع واقع العشيرة الذي يشكل نقطة انطلاق المشرع، فتصبح المرأة، أولاً وقبل كل شيء، مؤتمنة على حفظ النسل. ونحن نتصور أن الجهود الفقهية لا تتجاوز في أغلب ما رتبت من تشريع جملة من المعطيات النسبية الموصولة بأمرين اثنين: خطاب عام يرسم حدود مبادئ كلية، وتأويل يرى فيما ينجز ما يعتقد أنه الأقرب إلى روح نص وواقع مجتمع معينين. وفي هذه النتيجة ما يلزمنا بالاقتناع بنسبية المنتوج الفقهي وخصوصيته، وإمكانية تجاوزه بالاستناد إلى المبادئ نفسها، المبادئ الكلية المعلنة في النص المطلق، والمصالح المرسلة والمقاصد المتوخاة (الإمام الشاطبي، د. ت:67–68). ولعل النماذج المستنبطة من أحكام تتعلق بالنساء المشار إليها تعكس في حقيقة الأمر وفاء الفقهاء للأعراف التي تحكمت في حركة مجتمعات كانت تبحث عن انسجام يضمن التوازن وسط ديناميتها الاجتماعية. ولأن دينامية التحول الجارية في المجتمعات العربية المعاصرة هي غير حركة المجتمعات العربية في زمن تشييد المذاهب الفقهية، فإن اجتهادات السلف لم تعد مناسبة للتحولات الحاصلة والجارية بوتائر مختلفة في واقعنا الاجتماعي. ومن الحق العمل مجدداً على فتح باب الاجتهاد على مصراعيه والعمل على مزيد من استنطاق روح النص القرآني لإنتاج مدونات فقهية تستند إلى قيم المساواة، وتعمل على بلورة فقه نسائي يتجاوز المرادفة اللغوية والتاريخية بين النسائي والطبيعي (حمل، إنجاب، رضاعة، تربية، طبخ) ليساهم في تعزيز قيم النسائية الثقافية ويعمل على تحويلها إلى شأن عام (عبد الصمد الديالمي، 2000:51–57).

لقد منح القرآن الإنسان (المرأة والرجل) مكانةً عليا في الأرض، وإذا كان الفقهاء في القديم أوفياء لمقتضيات أعرافهم ومتطلبات مجتمعهم، فإن هذه الأعراف والمتطلبات قد أصبحت الآن قاصرة عن الاستجابة لحاجيات عصرنا ومجتمعنا. ولذلك فإن الانفتاح على القوانين الدولية التي تنزع جميع

**يتجه بعض دعاة الاجتهاد اليوم من الفقهاء المستنيرين والعلماء، الذين لا يغفلون سنن التغير والتطور في المجتمع، إلى بلورة رؤية متسامية في موضوع نظرة القرآن لمختلف ظواهر المجتمع ومتغيرات التاريخ**

الإطار 6-2

**محمد عبده: في نقد تعدد الزوجات**

"أما جواز إبطال هذه العادة، أي تعدد الزوجات، فلا ريب فيه. أولاً فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل، وهذا الشرط مفقود حتماً... وثانياً، قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم وحرمانهم من حقوقهن في النفقة والراحة، ولهذا يجوز للحاكم والقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب. وثالثاً، قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم، فإن كل واحد منهم يتربى على بغض الآخر وكراهيته فلا يبلغ الأولاد أشدهم إلا وقد صار كل منهم من أشد الأعداء للآخر (...). ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجواري صيانة للبيوت من الفساد".

المصدر: محمد عبده، 1980:94– 95.

الإطار 6-3

**عبد الهادي بوطالب: فقه التيسير**

من شأن الاجتهاد الانفتاح على فقه التيسير، أي على العدل والإنصاف، وعدم الاقتصار على نقل أقوال الفقهاء القدامى، خاصة الأقوال المشتطة التي تتنافى مع مبادئ الإسلام الخيِّرة. وهذا هو ما يوفر المقتضيات التي تحقق إصلاح علاقات الأسرة في العالم المسلم، ضمن توجهات الإسلام الصحيحة القاضية بتحقيق الإنصاف، والعدل، والرحمة، والمساواة.

المصدر: عبد الهادي بوطالب، 2005.

أشكال التمييز بين المرأة والرجل لا يمس بالعقيدة الدينية، لأن هذه القوانين هي الأقرب إلى روح نصوصه، وهي أيضاً الأقرب إلى التغييرات الجارية في المجتمعات العربية المعاصرة.

## المرأة العربية في الأمثال الجارية

### في دعم أخلاق المفاضلة بين الجنسين

تبني الثقافة الشعبية العربية صوراً متناقضة عن المرأة والبنت والزوجة في مختلف أطوار الحياة. وتشكل الأمثال المتداولة وسط أغلب فئات المجتمع العربي في موضوع المرأة في عمومها نموذجاً قوياً للوعي الذي ينظر إلى المرأة نظرة دونية. وذلك ما يكشف غربة المتداوَل من الوعي الشعبي عن التحولات الجارية في قلب المجتمعات العربية، حيث تتم أسطرة أوضاع النساء، دون عناية بالمفارقات التي تحملها هذه الأسطرة في علاقاتها بالصورة الفعلية للنساء والفتيات في واقع المجتمع.

لقد عملت الأجيال المتلاحقة في تاريخ مجتمعنا على تداول وإعادة إنتاج كثير من الأمثال الحافظة والمرسخة لدونية النساء في واقعنا. ومعنى هذا أن المرأة في مجتمعنا ليست محاصرة بالتأويلات الفقهية التقليدية والمحافظة فحسب، بل إنها محاصرة أيضاً بمحمول الحكايات والأساطير والأقوال التي ترسم لها مكانة محددة داخل المجتمع.

صحيح أن مفردات المأثور الدارج في الأمثال المتداولة تستعيد، بطريقتها الخاصة، معطيات نصوص وأساطير وأقوال تنتمي إلى مرجعيات متداخلة، كما تنتمي إلى أزمنة موغلة في القدم، حيث تعبر الأقوال عن أوضاع مختلفة تماماً عن متغيرات المجتمع في واقعنا الراهن. إلا أن طريقة انتشار الأمثال وتداولها، وأشكال التبديل والتغيير التي تلحق مفرداتها وعباراتها، تحولها إلى منتوج جمعي وذاكرة جماعية، هدفها صيانة أداة من أدوات ترسيخ قيم بعينها داخل المجتمع (سامية الساعاتي، 2003: 75– 84).

ويقف المراجع لنماذج وعينات من الأمثال العربية المتداولة في موضوع المرأة وأحوالها في ثقافتنا الشعبية على كثير من الصور المتناقضة، وخاصة عندما نقارن بين الأمثال التي توصف فيها المرأة الأم والمرأة الزوجة، أو الصور التي توصف بها المرأة المتزوجة والمرأة غير المتزوجة.

إلا أن هذه التناقضات العارضة لا تغير من الرؤية العامة المهيمنة، وهي رؤية منحازة، كما قلنا، للرجل وللقيم التي تبناها الرجال وعملوا بوسائط عديدة على إشاعتها داخل المجتمع.

وعندما نتجه لقياس مظاهر ودرجات الدونية، وحصر سماتها العامة كما شُكِّلَت في الأمثال المتداولة في مجتمعنا، نقف على معطيات كاشفة عن بعض آليات الصراع الاجتماعي وقد ترجمت في كلمات وعبارات، بهدف تسويغ الدونية والتسليم بها، بل وتحويلها إلى خاصّيّةٍ لا تقبل التغير. ولأن الأمثال عبارة عن سجلات حافظة لمأثور مستخلص من تجارب البشر في التاريخ، ولأنها تنطق أحياناً بلسان المجاذيب والأولياء والأصفياء والشيوخ والأقطاب، وتستعمل الكلمات بإيقاع وإيحاء خاصين، حيث تسود فيها لغة الإيجاز ولطائف التشبيهات والنوادر ومختلف أساليب البلاغة والتبليغ التي يُراد من وراء استعمالها تحقيق التأثير بأقصى ما يمكن من النجاعة، فإن منزلتها الوجدانية تمنحها امتياز العبارة الحازمة التي لا يأتيها الباطل. فتحفظ هذه الأمثال وتستعاد، ويكون لها الصدى الواسع، وخاصة في المجتمعات التي تعاني فيها النساء والبنات من الأمية.

### مفردات المنزع الدوني في الأمثال العربية

تتعايش في المجتمع العربي اليوم أنماط عديدة من القيم، تتداخل فيها اللغات والمواقف والقيم بصورة مركبة ومختلفة. وصحيح أن الأمثال المتداولة في أوساط فئات عديدة من مجتمعنا تنحاز للقيم الذكورية وتعمل على إقصاء النساء بحكم طبعهن "الناقص" و"الشرير"، غير أن الظواهر الجديدة الناشئة في إطار التحولات التي عرفها مجتمعنا خلال النصف الثاني من القرن الماضي وإلى حدود هذه اللحظة، تكشف بما لا يدع أي مجال للشك غربة كثير من هذه الأمثال عن الواقع. وهذا الواقع هو الذي أثبتت فيه النساء فعلاً حضورهن الفاعل في قلب ديناميات التغير الاجتماعي الجارية في بلادنا (علي أفرفار، 1996: 60-63).

نبدأ في رسم المعالم العامة للصورة بملمح الإقصاء، مستندين في ذلك إلى مجموع من الأمثال المتداولة في أكثر من قطر عربي (بلدان المشرق العربي، مصر، المغرب العربي). ففي المأثور الشعبي مئات الأمثال التي تعلن بصيغ عديدة ما يقترب من روح وأد البنات. وتلجأ الأمثال لتبرير

تشكل الأمثال المتداولة وسط أغلب فئات المجتمع العربي في موضوع المرأة نموذجاً قوياً للوعي الذي ينظر إلى المرأة نظرة دونية

المرأة في المجتمعات العربية ليست محاصرة بالتأويلات الفقهية التقليدية والمحافظة فحسب، بل إنها محاصرة أيضاً بمحمول الحكايات والأساطير والأقوال التي ترسم لها مكانة محددة داخل المجتمع

صورة الإقصاء إلى حجج أخلاقية، وأخرى تستعمل فيها لغة الحكايات والأساطير. كما تلجأ إلى مبررات ذات طابع نفسي. أما الهدف من مختلف الصيغ التي ترد فيها الأمثال فهو إظهار المنزلة الاجتماعية والأخلاقية الناقصة لحضور المرأة ووجودها في المجتمع. وتذهب بعض الأمثال إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تُعتبر المرأة نصف عقل ونصف دين ونصف ميراث ونصف شهادة. وينتج عن كل ما سبق رسم مقاس محدد لكيانها البيولوجي والمنزلي، دون مراعاةٍ لمبدأ استقلالية ذاتها.

وفي الأمثلة الآتية ما يحدد مجمل العناصر التفسيرية التي قدمنا.

- "صوت جنية ولا صوت بنية".
- "يا مخلفة البنات يا شايلة الهم للممات".

لا تقابل المرأة في الأمثال صورة الحاقدة والماكرة والخائنة والخاضعة لنزواتها الجسدية، بل إنها ترادف الشيطانة والطائشة. لهذا تلجأ الأمثال إلى التصوير الذي يركب بطريقة لا شعورية بعض الصور المناقضة للمبادئ التي تخفيها مبادئ ومبررات الإقصاء، حيث تصبح المرأة حاملة لقوة تعادل قوة الفعل الشيطاني في جبروته، وفي قدرته على تحطيم من يعترض سبيله. ونحن نتصور أن الرسالة المقصودة من مثل هذه الأمثال هي إشاعة ثقافة الاحتراز من جنس النساء. وهذا الأمر بالذات يولد مواقف مضادة، مواقف يجري تداولها في صور حكايات ترويها الجدات للحفيدات (فاطمة المرنيسي، 1983: 40-59).

مقابل ما سبق، يظل الرجل في الأمثال هو الطريق نحو بلوغ مرافئ الأمان، حيث لا يمكن للمرأة الاستغناء عنه، شريطة قبول نظام التراتب الذي تقره تأويلات الموروث الديني التقليدية، وتعممه الأمثال الدارجة. وفي هذا الأمر ما يدل على الحيف الاجتماعي. فإذا كانت "البنت مصيبة" فإن "الزواج سترة". وفي مختلف الأحوال يصبح من المشروع إشاعة الادعاء الذي يرسله المثال المتحدث بلسان امرأة والقائل "جهنم زوجي ولا جنة أبوي"، والمثل الأكثر عنفاً "البت إما راجلها أو قبرها". إلا أن الزواج هنا لا يمكن فصله عن نظام القيم ونظام المؤسسات الحاصلة في المجتمعات التي تحرص على إقامة التمييز بين الجنسين من منظور أبوي، حيث يظل الرجل الزوج والأب هو الضامن لنظام التراتب القائم في المجتمع (خديجة صبار، 1998: 49-67).

في المأثور الشعبي، وفي كثير من نصوص التراث، تحضر صور أخرى للمرأة الذكية والبليغة والساحرة، بالمعنى الإيجابي للكلمة

هناك أمثال عديدة تعلي من شأن المرأة، أمّاً وبنتا

### النظرة الإيجابية للمرأة

لكن لا تفوتنا الإشارة هنا إلى وجود نقائض للأمثال التي ذكرناها. ففي المأثور الشعبي، وفي كثير من نصوص التراث، تحضر صور أخرى للمرأة الذكية والبليغة والساحرة، بالمعنى الإيجابي للكلمة، حيث تمارس شهرزاد، في الأدب الشعبي على سبيل المثال، قدرة عجيبة على التأثير بالحكي. كما أن بعض الأحكام والأقوال الجارية عن دور الأم ومكانتها في الأسرة وفي المجتمع تركب لها صوراً مختلفة تماماً عن الصور الشائعة في ثقافتنا الشعبية. ويمكن فهم الصور المتناقضة للمرأة في الوجدان الشعبي باعتبارها تعبيراً عن حالات نفسية متعددة، ولا نمنحها صفة الموقف النظري الثابت والمغلق. إنها مواقف تعكس حالات وتصورات متقلبة على الرغم أنها في الأغلب تنحو، كما قلنا، منحى يروم ترسيخ دونية جنس النساء (إبراهيم شمس الدين، 2002).

وهناك أمثال عديدة تعلي من شأن المرأة، أمّاً وبنتاً. ومن الأمثال التي تذكر فيها الأم والبنت بصورة إيجابية، حيث الأم تعد أهم من الأب ومصدر الرعاية والحب والحماية وحسن المآل:

- "الأم تعشش والأب يطفش".
- "اللي عنده أمه ما يتحملش همه".
- "اللي تموت أمه تقول السما مات من يحبك على الأرض يا إنسان".
- "الجنة تحت أقدام الأمهات" (حديث نبوي شريف).

بل إن البنت تعادل في بعض الأمثال الحياة: "إللي ما خلّف بنات ما فات".

الإطار 4-6

**الشيخ محمد الغزالي: الانحراف عن تعاليم الدين بشان المرأة**

إن المسلمين انحرفوا عن تعاليم دينهم في معاملة النساء وشاعت بينهم روايات مظلمة وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع انتهت بالمرأة المسلمة إلى الجهل الطامس والغفلة البعيدة عن الدين والدنيا معا. كان تعليم المرأة معصية، وذهابها إلى المسجد محظورا! وكان اطلاعها على شؤون المسلمين أو انشغالها بحاضرهم ومستقبلهم شيئا لا يخطر ببال! وكان ازدراء الأنوثة خلقا شائعا، والسطو على حقوقها المادية والأدبية هو العرف المستقر! ومنذ ثلاث سنين فقط وقف خطيب مشهور يصيح بأسى وغضب يقول: رحم الله أياماً كانت المرأة فيها لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى العالم، ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر! قلت: لا بارك الله في هذه الأيام، ولا أعادها في تاريخ أمتنا، إنها أيام جاهلية لا أيام إسلام، إنها انتصار لتقاليد جائرة، وليست امتدادا للصراط المستقيم. وتدحرج الأمة الإسلامية إلى العالم الثالث في ميدان العلم والتربية والإنتاج يعود كفل منه كبير إلى التقاليد الزائفة.

المصدر: عبد الحليم محمد أبو شقة، 1999: 5.

وهكذا ننتقل في مجال المتداول من الأمثال الشعبية من السلب إلى الايجاب، مما يوضح بجلاء تناقضات الطور الانتقالي الذي تعرفه المجتمعات العربية في موضوع النظر إلى المرأة وإلى مكانتها في المجتمع.

## المرأة في الفكر العربي المعاصر

### نحو ميلاد مرجعية جديدة

قبل معاينة صورة النساء في الفكر العربي المعاصر، وبناء بعض عناصر المرجعية النظرية المؤطرة لها، نشير إلى أن النظر في وضع المرأة وواقعها تميز بطابعه المتصل بربط سؤال المرأة بسؤال النهضة العربية. ولهذا السبب، سنكتشف في جوانب من منتوج هذا الفكر، أن سؤال المرأة سيتجه للبحث في كيفية التخلص من ثقل وأعباء المرجعية التقليدية الموروثة في مختلف تمظهراتها.

ونظراً لاتساع مجال الموضوع، نركز على أبرز اللحظات في تطور قضايا المرأة في الفكر العربي المعاصر، وتشمل: لحظة إدراك الفارق، ثم لحظة وعي التحول، وأخيراً لحظة المأسسة، حتى يمكن رصد تحولات الوعي العربي ومفارقاته في النهاية (كمال عبد اللطيف، 2003: 9-13).

#### لحظة إدراك الفارق: المرأة الأخرى في مرآة الذات

نقصد بإدراك الفارق اللحظة التي شخَّص فيها الفكر العربي بدايات التحول الصانعة للملامح الكبرى لما يعرف بعصر النهضة العربية، حيث أدركت النخب السياسية والنخب المركِّبة لبرامج الإصلاح الفكري والاجتماعي أن المجتمعات الأوروبية تتميز بسمات محددة صانعة لقوتها وتقدمها. ويؤكد هذا الإدراك أن كل تفكير في تجاوز أوضاع التأخر الحاصلة في المجتمعات العربية يقتضي الاستعانة بالأسس والمقدمات التي صنعت، وما فتئت تصنع، مظاهر النهضة والقوة في أوروبا وفي العالم المتقدم.

ويمثل هذه اللحظة، بامتياز، المشروع الإصلاحي للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) الذي سنعتمد بعض نصوصه في رصد ملامح هذه اللحظة في الفكر العربي. ويتعلق الأمر هنا بنَصَّي "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين"، و"تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، (رفاعة الطهطاوي، 1834 و 1870).

اتسمت كتابة الطهطاوي بطابعها السجالي. ولأنه يدافع في مشروعه النهضوي عن الإصلاح وعن التمدن، فقد لجأ في موضوع المرأة إلى حصر مجموع التصورات التي تحول دون حصول التطور في أحوال النساء، من قبيل رفض تعليمهن القراءة والكتابة. كما عمل على مواجهة التصورات التي تلصق بهن مواصفات المكر والكيد والدهاء ونقص العقل، حيث لا تتجاوز وظيفة المرأة في نظر من يؤمن بما سبق، حسب عبارة الطهطاوي، "وظيفة الوعاء الذي يصون النسل".

يلح الطهطاوي في لحظات مواجهته للخطاب التقليدي السائد في موضوع تعليم المرأة على أهمية العلم في الحياة، وهو لا يكتفي بتعداد مزايا التعليم في حياة المرأة، بل إنه يذهب أبعد من ذلك، بروح تفتح أفقَ التطور، في واقع المرأة العربية، على متغيرات غير مألوفة في النظام الاجتماعي والثقافي السائدين في زمنه. فقد ربط التعليم والمعرفة بموضوع العمل. ذلك أن التعليم، في تصوره، يتيح "للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجل (...) فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء". (رفاعة الطهطاوي، 1973: 210).

تحضر في نصوص الطهطاوي المتعلقة بتعليم البنات أسئلة الاختلاط والحجاب، بحكم أنها من القضايا المعبرة عن جوانب من ملامح المجتمع العربي. وقد لجأ الطهطاوي وهو يدافع عن تعليم المرأة وعملها إلى التاريخ، وإلى بعض مقتضيات الشرع الإسلامي، محاولاً في سياق ذلك المواءمة بين التاريخ الذاتي المتمثل في المرجعية التراثية، وبين مكاسب الأزمنة المعاصرة في المعرفة والحياة. وعمل، في الوقت نفسه وبالطريقة نفسها، على تأسيس ما يسمح بالاختلاط الذي لا يخل بقيم الحياء، مع حرصه الشديد على رفض كل ما ساهم ويساهم في حجب النساء عن الواقع، بحكم أن العمل يتطلب خروج المرأة من البيت. والأمر في نظره مشروط بالثقة المؤسَّسة على حسن التربية، حيث ينتج عن التربية الجديدة، القدرة على إعداد البنات بالصورة التي تؤهلهن لتمثل قيم العصر والتكيف مع متطلباتها (كمال عبد اللطيف، ورقة خلفية للتقرير).

أدركت النخب السياسية والنخب المركِّبة لبرامج الإصلاح الفكري والاجتماعي أن المجتمعات الأوروبية تتميز بسمات محددة صانعة لقوتها وتقدمها

لجأ الطهطاوي وهو يدافع عن تعليم المرأة وعملها إلى التاريخ، وإلى بعض مقتضيات الشرع الإسلامي، محاولاً في سياق ذلك، المواءمة بين التاريخ الذاتي المتمثل في المرجعية التراثية، وبين مكاسب الأزمنة المعاصرة في المعرفة والحياة

الإطار 5-6

**الحرية امرأة**

كانت المرأة في الأعصر المظلمة بأوروبا وغيرها مرذولة محتقرة تُعَدُّ من قَبيل المتاع، وكان للرجل أحياناً أن يبيعَ امرأته بالمزاد العموميّ. وتفنَّنَ الكتَّابُ والشعراء في هجائها وانتقادها. وتباحث اللاهوتيون طويلاً في "هل للمرأة نفس" وزعموا أنها "باب جهنم" و "معمل أسلحة الشياطين، وصوتها فحيح الأفاعي" وأنها "نبال الشياطين وسامة كالصِّلّ، وحقودة كالتِّنين"(...)

فلمّا بزغ نورُ التمدين الحديث، وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد إلى الاختبار والدرس، كان في جملة ما همهم "المرأة" فأدركوا (...) أن النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها. لأنها قوام العائلة، ومربية الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة. فقدّموها وعلموها ورفعوا منزلتها؛ فقامت تطالب بحقوقها. واختلف الكتاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة وإجلالها حتى مثّلوا بها الفضائل والمفاخر، فإذا أرادوا تصوير الحرية مجسَّمة نحتوا لها تمثال امرأة. وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة، فإنهم يمثلونها امرأة.

المصدر: جرجي زيدان، 2002.

### لحظة وعي التحول: بداية محاصرة السقف الفقهي المكرس للدونية

إذا كانت نصوص الطهطاوي قد شكلت البؤرة المدشنة للملامح التي عبرت عنها اللحظة الأولى، فإن نصوص مصلحي ورواد الحقبة الثانية قد استوعبوا في آثارهم، بطريقة أو بأخرى، مجمل مُدركات الفارق التي تبلورت في أعمال الطهطاوي، وهي صورة المرأة الأخرى المستمدة من مرجعية التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر.

لم يتردد قاسم أمين (1865–1908)، كما لم يتردد الطاهر الحداد (1899–1935)، في الدفاع عن مبدأ الاستفادة من تجارب التاريخ والمجتمع الأوروبي، مع إنكار وجود أي تناف بين مبادئ الشريعة وقيم الحياة الجديدة الناشئة في المجتمعات المعاصرة. ونعثر على ملامح الجهد المذكور وقد اتخذت صيغة جدل في إعادة ترتيب وتأويل بعض الآيات القرآنية، بهدف فضح تأويلها المنحاز لقيم بعينها. وقد تبلورت ملامح هذا الجهد كذلك في العمل الرائد الذي أنتجته نظيرة زين الدين (1908–1976) في "السفور والحجاب" (نظيرة زين الدين، 1998).

تقدم نصوص قاسم أمين في هذه اللحظة، على سبيل المثال، العناصر الأساس في باب رصد عناصر التحول في إدراك النخب العربية لطبيعة الوضع النسائي في المجتمع العربي، ولنوعية الأسئلة المواكبة لمختلف مظاهر التغير. وقد برزت مظاهر التغير هذه بدرجات متفاوتة في مختلف البلدان العربية، على الرغم من مظاهر الهيمنة الاستعمارية التي كانت تشكل السمة الأبرز في واقع حال أغلب هذه المجتمعات.

**لم يتردد قاسم أمين، كما لم يتردد الطاهر الحداد، في الدفاع عن مبدأ الاستفادة من تجارب التاريخ والمجتمع الأوروبي، مع إنكار وجود أي تناف بين مبادئ الشريعة وقيم الحياة الجديدة الناشئة في المجتمعات المعاصرة**

يُشَخِصُ الأثر النصي لقاسم أمين أحوال المرأة المصرية والعربية بحكم صلات الوصل والترابط القائمة في الفضاء العربي، على الرغم من شساعة المجال الجغرافي، وبحكم القيم الجماعية الرابطة والبُنى التاريخية المؤسِّسة للمشترك بين البنى والقيم، ومختلف الوسائط التي تعبر عنها. وتشكل مسألة إبراز مظاهر دونية المرأة في قلب ما سبق المحورَ الناظم لعملية التشخيص العياني المباشر.

أما علامات الدونية كما تبلورت في نصوصه، فيمكن تعيينها في العناصر الآتية: عدم الخروج من البيت بدون عمل، الانفصال في الأكل، المراقبة من طرف الأب والزوج والأخ والابن، الطلاق، المرأة ليست محلاً للثقة، بدون درجة في مقامات مجال المنافع العمومية ومؤسسات الشأن العام، بدون مقام في الاعتقاد الديني، بدون ذوق، بدون فضيلة وطنية.

يحضر التشخيص المذكور في نصوصه بطريقة نقدية وبمنحى إصلاحي دعوي. ويوصَف سرد الأوضاع ببلاغة توحي بكثير من سلبيات هذا الذي يرسخ دونية النساء في مجتمعاتنا. وما هو أهم من كل ما سبق، هو الجدلية التي ينظر من خلالها إلى دور المظاهر المذكورة في إعادة ترسيخ الدونية المشخصة آنفاً، بهدف البحث في سبل نفيها وتجاوزها (ماهر حسن فهمي، 1964: 115–132).

وسعياً لبلوغ هذه الغاية، يُركِّب قاسم أمين برنامجه في الإصلاح، فيكتب "تحرير المرأة" (1899) و "المرأة الجديدة" (1900)، مستنداً إلى مرجعيات تتداخل فيها الروح الإصلاحية الجديدة في فكر النهضة العربية، مع مرجعيات الفكر الاجتماعي الجديد في أوروبا، وخاصة بعض مقدمات ومفاهيم الفلسفة الوضعية. ونكتشف أن الخلفية النظرية الناظمة لرؤيته ومشروعه في الإصلاح تتأسس اعتماداً على المرجعيات والمبادئ الفكرية التي واكب ظهورها ميلاد المجتمع الصناعي، وما نتج عنه من تحولات في الهيئة الاجتماعية، وفي النظرة العامة للمجتمع والتاريخ (قاسم أمين، 1899 و 1900).

دعا قاسم أمين أيضاً إلى تحرير المرأة من التقاليد، وذلك بإلغاء الحجاب وتقييد حق الرجل في الطلاق. كما دعا إلى مساواة المرأة بالرجل في مسألة الحقوق المدنية. وفي هذا البرنامج الإصلاحي من العناصر ما يوضح لنا أننا أمام تحول مفصلي في النظر إلى قضايا المرأة العربية،

تحولٍ يرسم ملامح نقد قوية تضعنا على عتبة آفاق جديدة في النظر إلى واقع المرأة، حتى عندما لا تتوفر السبل لدفع بنود البرنامج المذكور نحو الإنجاز.

تشخص روح منطلقات ومرامي قاسم أمين ونظيرة زين الدين ثم الطاهر الحداد وغيرهم، في معالجتهم لقضايا المرأة، وعيهم الحاد بلزوم التغيير وبضرورته. إلا أن ما يعزز هذه اللحظة ويمنحها حضورها الرمزي الفاعل في بنى وتلافيف الفكر والمجتمع العربي، هو الجبهة الواسعة التي فتحت في قلب جدران المجتمع العربي السميكة الصلبة. فقد لاقت الدعوة التحررية لقاسم أمين، كما قلنا، أصداء متقطعة ومتناقضة، وهو الأمر الذي ولد جدلاً حياً ساهم بدوره في تطوير أدوات ومفاهيم الفكر العربي في معالجته لأسئلة تحرر المرأة وتطور المجتمع العربي (كمال عبد اللطيف، ورقة خلفية للتقرير).

### لحظة وعي المأسسة: نحو بناء عقلانية إجرائية في مقاربة قضايا المرأة العربية

يعني التشخيص المتضمن في الفقرات السابقة أن معركة تحرير المرأة في الفكر وفي الواقع العربي، ما تزال تستدعي بذل جهود مضاعفة، للتمكن من تفتيت سقف الأفكار والمواقف، التي ما فتئت تحكم وجدان وخيال وعقل الأفراد والجماعات داخل أغلب البلدان العربية. وفي هذا السياق، يفترض أن التحول الذي طرأ على موضوع مقاربة إشكالات المرأة العربية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، ساعد، وما فتئ يساعد، في عمليات مقاومة مختلف صور النظر الدوني للمرأة.

يمكن التحدث عن حركية متدرجة وبطيئة في مجال تلبية بعض المطالب النسائية داخل بعض الأقطار العربية، وبخاصة في باب القوانين المنظمة للأسرة، والقوانين التي تتيح للنساء المشاركة في الحياة السياسية. إلا أن هذا الحراك لا يعادل درجة الضغط الموجَّهة ضد النساء في كثير من أبواب الحياة ومجالاتها داخل المجتمع.

لقد بدأ العمل وفق الروح الموجهة لهذه اللحظة انطلاقاً من إدراك الفاعلين أن فعالية الخطاب النظري الإصلاحي الذي ظل سمة حاضرة في الفكر السياسي والاجتماعي العربي طيلة النصف الأول من القرن العشرين، لم يولد النتائج القادرة على محاصرة التقاليد والأفكار المحافظة في النظر إلى قضايا المرأة، وإشكالات النهوض بواقعها داخل المجتمع العربي. ولمواجهة هذا القصور، عملت كثير من الحكومات العربية منذ سبعينيات القرن الماضي على إدخال متغير النساء في خطط وبرامج التنمية. وطرأ هذا التطور في إطار تصور جديد للتنمية لا يكتفي بالعناية بالنمو الاقتصادي، بل يبحث أيضاً وبصورة أولية في دور النمو الاقتصادي، وفي تعزيز دوائر التنمية البشرية، ثم التنمية الإنسانية الشاملة.

وفي هذا السياق، يمكننا أن نتحدث في لحظة وعي المأسسة عن التدويل الذي لحق بقضايا النساء. فقد توالت المؤتمرات الإقليمية والدولية والمحلية، بهدف محاصرة الأوضاع المتدنية للنساء في العالم، ومحاولة إنتاج خطاب مطلبي مُتوَافقٍ بشأنه، مع مراعاة الفوارق والاختلافات النسبية القائمة بين أوضاع النساء في مختلف بلدان العالم. كما يمكن أن نتحدث في هذه اللحظة عن التطور في مستوى المقاربة، الذي انتقل من مستوى المعالجة الاجتماعية المتعلقة بجنس معين، إلى مستوى المقاربة المبنية في إطار التفكير في موضوع التنمية الإنسانية.

**ما تزال معركة تحرير المرأة في الفكر وفي الواقع العربي تستدعي بذل جهود مضاعفة للتمكن من تفتيت سقف الأفكار والمواقف**

### مظاهر الوعي الجديد، مؤشرات ومفارقات

يلاحظ المتابع لقضايا الشأن النسائي في الفكر العربي المعاصر تبلور مؤشرات جديدة دالة على نوعية التحول الذي عرفته هذه القضايا عندما اتخذت طابعاً مؤسسيا. ذلك أن انخراط النساء في الجمعيات المدنية التي تعنى بقضايا العمل الحقوقي والعمل السياسي ساهم في إعادة تأهيل المجتمع وإعادة تربيته على قبول الحضور النسائي الفاعل. وكان من أهداف هذا التحول تبديد الصورة النمطية للمرأة التي استعيرت من تاريخ في طور التلاشي وأصبحت معياراً مطلقاً، ولتحل محلها في التاريخ الجديد أفعال أخرى تمنح الصورة فضاء أرحب للفعل والاجتهاد والإنتاج والإبداع.

ومن المؤكد أن العلوم الاقتصادية والاجتماعية،

الإطار 6-6

**نظيرة زين الدين: الزمن، الحرية والتحرر**

"لا نستطيع أردنا أم لم نرد أن نقف حاجزاً في سبيل تيار النهضة الحديثة وما تتحفنا به من آراء جديدة في علم الاجتماع. فالدين قد تحرر، والعلم تحرر، والعقل تحرر، والفكر تحرر، والفن تحرر، والمجتمع تحرر، وكل شيء في هذا العالم أفلت من يد الاستعباد والرق".

المصدر: نظيرة زين الدين، 1998:121.

وعلم النفس والتحليل النفسي، وتطور الوعي بقضايا الحياة الجنسية، قد ساهمت مجتمعة في إغناء التصورات والمواقف التي تتصارع في مجال النظر لقضايا المرأة والمجتمع. وأدى ذلك إلى تعزيز المرجعية الجديدة بالمكاسب المعرفية العصرية وبآليات التأويل ومنهجياته الجديدة. وساهم هذا الأمر كذلك في محاصرة الحضور الذي تتمتع به المعارف التقليدية في هذا المجال.

وقد نتج عن كثافة حضور المفردات والمفاهيم الموصولة بنتائج العلوم الإنسانية، تركيب وإبداع مفاهيم جديدة في العناية بوضع النساء في العالم. وتعمقت هذه المفاهيم بفضل جهود الحركات النسائية التي اتجهت للعناية بسؤال وضع المرأة، مبرزة أهمية التاريخ والثقافة في تركيب الطبائع والمراتب داخل المجتمع. ونشير هنا بالذات إلى المفاهيم التي أصبحت تستعمل كوسائل للتفكير في واقع المرأة العربية، من قبيل المساواة والعدالة والمشاركة والتمكين والنوع الاجتماعي والتنمية الإنسانية. وتتقاطع في إطار هذه المفاهيم تصورات جديدة في ظواهر الشأن الاجتماعي والسياسي والشأن التنموي.

ساهمت المفاهيم المذكورة والآليات المنهجية المستمدة من حقول العلوم الإنسانية، كما ساهمت مشاريع نقد العقل العربي الإسلامي بفتوحاتها المعرفية الهادفة إلى نقد دوغمائيات التقليد، في تطوير كثير من أوجه الفكر والمجتمع في عالمنا (محمد عابد الجابري، 1984 و1986 و1990 و2000) و (أركون، بالفرنسية، 1984). ونجد أصداء هذا الأمر في كيفيات النظر إلى قضايا المرأة العربية، حيث تم تطوير سؤال المرأة وأسئلة تجاوز وضعها الراهن. فنتج عن ذلك في مستوى الخطاب، وفي مستوى التصورات، معطيات جديدة مكنت الفكر العربي من محاصرة أقوى لسجلات التقليد المعرفية في الثقافة وفي المأثور الشعبي.

إن المظهر الأبرز الذي يميز عمليات المواجهة التي تمارسها النساء اليوم في العالم العربي يتمثل في تجاوز التموقع النسائي داخل المجتمع، في اتجاه تموقع أشمل يرتبط بأسئلة التحول الكبرى الجارية في المجتمعات العربية (أسئلة النهضة والتنمية والتقدم). فقد أصبح مشروع الإصلاح السياسي، والإصلاح الاقتصادي، وبناء تجاوب إيجابي مع منظومة حقوق الإنسان في عالمنا، يندرج ضمن الأهداف المباشرة للمرأة العربية. ولهذا السبب، تزايد الحضور النسائي داخل تنظيمات المجتمع المدني والمجتمع السياسي.

وتعد هذه الخطوة وسيلة من وسائل تحقيق ما يمكّن من التفاعل بصورة أعمق مع أسئلة التغيير، والمشاركة في بنائها باعتبار أنها تندرج ضمن أسئلة وقضايا الشأن العام.

ولا ينبغي التقليل من أهمية هذه المشاركة في معركة تشمل، دون استثناء، مختلف مجالات الحياة في المجتمع (كمال عبد اللطيف، ورقة خلفية للتقرير).

لقد أصبحت قضايا المرأة العربية في نهاية القرن الماضي موصولة بمشروع في التغيير يؤمن بدور الوسائط الاجتماعية في بلوغ الأهداف الاجتماعية. وأصبحنا نقف في أعمالها أمام سجل من التوصيات والإجراءات الساعية إلى توسيع مجالات التحسس بقضايا النساء. وقد تمظهر الفكر الجديد في وسائط جديدة من مبتكرات زماننا، حيث تحضر شبكات الإنترنت، ومنتديات الحوار الإلكتروني، وقنوات التلفزة وبرامجها المتخصصة، لبناء منظومات في النظر القائم على سلطة الحوار والاقتراح وبناء التصورات. ومكّن ذلك كله من إنتاج خطاب جديد في التحرير يتجه اليوم لاحتلال مجالات لم تكن المرأة تستطيع بلوغها بمساعدة الوسائل المقرونة بأنظمة الكتاب والجريدة. وقد أصبحت هذه الوسائل تتراجع شيئاً فشيئاً أمام الهندسة الوسائطية الجديدة الهادفة إلى تحقيق التأثير المساعد على خلخلة كل الأوجه المحافظة في الموروث، وخاصة منها التقاليد والأفكار التي تشرع للتراتب وتعتبره "طبيعة". وتتوخى هذه الوسائط الجديدة المساهمة في تعميق الوعي بالنوع الإنساني الذي يستهدف بدوره التماسك الاجتماعي والمساواة الاجتماعية، استناداً إلى مبدأي التكافؤ والندية، باعتبارهما البديل المناسب لمفهوم التمييز والتمايز بين الجنسين (مرنيسي، بالفرنسية، 1984: 13–35 وكمال عبد اللطيف، ورقة خلفية للتقرير).

إلا أن هذا التحول النوعي الناشئ في الفكر العربي لا ينبغي أن يدفعنا إلى إغفال التناقض الكبير الذي يمكن أن يسجله المراقب والمهتم بتاريخ الأفكار. فقد عادت مجموعة هائلة من التصورات التقليدية والرؤى المحافظة في موضوع دور النساء في المجتمع، لتنتعش في الخطاب واللباس وفي الطقوس اليومية، بهدف مواجهة التحول الذي حققته آليات المأسسة، التي نقلت قضايا المرأة من المستوى المحلي إلى المستوى الكوني، وعمقت قضاياها بمحاولتها التفكير في أسئلة التنمية الإنسانية.

**أصبحت قضايا المرأة العربية في نهاية القرن الماضي موصولة بمشروع في التغيير يؤمن بدور الوسائط الاجتماعية في بلوغ الأهداف الاجتماعية**

**تتوخى الوسائط الجديدة المساهمة في تعميق الوعي بالنوع الإنساني، الذي يستهدف بدوره التماسك الاجتماعي والمساواة الاجتماعية، استناداً إلى مبدأي التكافؤ والندية، باعتبارهما البديل المناسب لمفهوم التمييز والتمايز بين الجنسين**

يشار هنا مثلا إلى شبكات الإفتاء التي تعولمت، ومنحت الخطاب المحافظ والفكر التقليدي مواقع وجبهات مناهضة لكل خطابات التحرير والتنمية وإدماج النساء في عوالم الإنتاج والإبداع.

إن استمرار هذه العودات والممانعات الرامية إلى توظيف التقاليد في مواجهة إشكالات المجتمع العربي، وذلك بحجب النساء وعزلهن داخل البيوت، يضعنا أمام مفارقة صارخة. فهو يؤشر على استمرار تقصير المجتمع والمؤسسات التعليمية، وتنظيمات المجتمع المدني، على الرغم من تكاثرها، في ترسيخ قيم المعرفة العصرية، وقيم الإصلاح السياسي، القاضيين بتعميم مجالات الحرية وتداول السلطة وروح المواطنة. وينبغي، في ذلك كله، محاصرة قيم المحافظة التي لا تلتفت إلى متغيرات التاريخ، ولا تدرك مزاياها، في تطوير نظر الإنسان لذاته ولمجتمعه (كمال عبد اللطيف، 1997: 67-80).

## المرأة في الرواية العربية

### بحثاً عن صور جديدة للمرأة العربية

يقدم هذا الجزء نماذج محددة، بهدف تشخيص الدور الذي يمارسه الإبداع الروائي في عمليات ترسيخ أو خلخلة ونقد القيم الاجتماعية والثقافية الناظمة لأوضاع النساء في مجتمعنا.

ولابد من الإقرار في البداية بدور الرواية العربية في تكسير الصور النمطية السائدة في مجتمعنا عن المرأة. فقد ساهمت الحساسية الروائية العربية بتنوعها وغناها في محاصرة النمط الشائع عن المرأة، وأصبحنا نواجه في عوالم الرواية عشرات النماذج والصور العاكسة لألوان طيف النساء في واقعنا.

لكن الرواية العربية، في لحظات اشتغالها على بناء معمار الوقائع في المتخيل الروائي لم تكتف بمحاصرة النمطية والتنميط في صورة المرأة، بل عملت أيضاً على تعيين مظاهر تمثل النساء للقهر وأشكال تواطئهن في عمليات إعادة إنتاج الهيمنة الذكورية. وفي الاختلاط والتناقض الحاصل في كثير من الأعمال الروائية ما يؤشر على حالات من التقاطع في القيم، يمكن تفسيرها بالسياق العام الذي يؤطر الإبداع الروائي المرحلة التاريخية الانتقالية التي تمر بها المجتمعات العربية.

### صور المرأة المتقاطعة في الرواية العربية

نستعمل في الاقتراب من عوالم المرأة في الرواية العربية مفهوم الصورة، ونوظفه للتمكن من بناء مُعاينةٍ تسعفنا في إدراك الدور الذي يمارسه الفن الروائي في تركيب وإعادة تركيب أوضاع النساء داخل المجتمع. وعلى الرغم من أن مفهوم الصورة يضيّق من مساحة التنوع الذي يشكل سمة بارزة في المعيش اليومي، كما يشكل خاصيةً من خصائص السرد في الأعمال الروائية، إلا أنه يتيح تركيب نماذج عاكسة ومعبرة إلى حد كبير عن محتوى الصراعات والتغيرات الجارية في الواقع. والاهتمام هنا هو بالصور في تفاعلاتها المخصبة بعضها لبعض، حيث تقدم الرواية العربية سجلاً من المعطيات المعبرة عن درجات وعي المبدعات والمبدعين العرب بإشكالات الواقع الاجتماعي العربي في تعقده وتحوله وجريانه.

إن العوالم التي ابتناها الروائيون العرب الكبار (من قبيل نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وحنا مينة وغيرهم) في إبداعهم السردي تتمتع بكفاءات عالية في رصدها التحولات وتناقضات الواقع الاجتماعي العربي في مختلف أبعاده. وخاصة في موضوع علاقة المرأة بالرجل.

وعلى سبيل المثال، فإن عالم نجيب محفوظ الروائي، وهو من أبرز العوالم المؤسسة لفضاءات السرد في الكتابة العربية المعاصرة، يتميز برصده وبنائه التخييلي لعدد هائل من الصور والمواقف عن المرأة في المجتمع المصري وفي المجتمع العربي وترسم ثلاثيته وحدها "بين القصرين" (1957أ)، "قصر الشوق" (1957ب) و"السكرية" (1957ج) الصادرة في نهاية خمسينات القرن الماضي ملامح المرأة في واقعنا العربي خلال ما يزيد عن نصف قرن من الزمان، حيث تتنوع صور النساء وصور معاناتهن بكثير من الدقة، لتعكس المَشَاهِد والمواقف والأحداث ومختلف مظاهر الموت والحياة والحزن والفرح والعنف والمتعة والزواج والطلاق، مما يصنع عالماً يفوق أحياناً في تعقده وغناه عالم الواقع الحي في مختلف أبعاده وتجلياته.

ويمكننا أن نتحدث عن شبكة من القيم الموصولة بنظرة معينة للمرأة داخل مسار تعاقب الأحداث وتعدد الشخصيات النسائية في الثلاثية. إلا أن هيمنة "أحمد عبد الجواد" على النص، وهو الذي يمثل الطغيان الأبوي الذكوري، يقابلها خضوع زوجته "السيدة أمينة"

**ساهمت الحساسية الروائية العربية بتنوعها وغناها في محاصرة النمط الشائع عن المرأة**

بكل تركيبتها النفسية والاجتماعية. ولعل أي محاولة نقدية تتجه لرسم عوالم "السيدة أمينة" المحصنة برضوخها، تجعلنا ندرك في رواية نجيب محفوظ ما لا نستطيع أحياناً رؤيته ولا تعيين ملامحه بدقة في الواقع. إلا أن نسل "أحمد عبد الجواد" و"أمينة" سيولّد في قلب مجتمع الرواية مختلف الإرهاصات المؤشرة على تحول نوعي في النظر إلى المرأة داخل مجتمعنا. وهذا بالذات هو ما يجعلنا نتحدث عن تأريخ الثلاثية لصورة الاستبداد وأخلاق الخضوع كما عاشتها ومافتئت تعيشها النساء في عالمنا، وتأريخها في الآن نفسه لمفارقات ثنائية هيمنة خضوع وما ولدته من توجهات تروم التمرد على واقع لم يعد يناسب القيم الجديدة في مجتمعنا.

لا يعني هذا أن التقابل مركب بهذه البساطة، ففي شخصيات الرجال الآخرين من أبناء "عبد الجواد"، وفي الشخصيات الأخرى من بنات "أمينة" وبناتهن من حفيدات "أمينة"، ما يعكس جوانب أخرى كامنة أو مكشوفة في الشخصيتين الكبيرتين. ذلك أنه يمكننا أن نقرأ في رومانسية "فهمي" وتردد "كمال" وتهور "ياسين" ابنه البكر من زوجته الأولى ما يوضح علاقة "أمينة" بكل من ابنتيها "خديجة وعائشة".

وينطبق الأمر نفسه على الأحفاد، حيث نصل في "السكرية"، وهي الجزء الأخير من الثلاثية إلى جيل الماركسيات من النساء المناضلات، ونصبح أمام الإرهاصات المبشرة بميلاد مجتمع جديد، عالم يجمع كثيراً من التناقضات، وتتعايش فيه ألوان متناقضة من القيم. وفي هذه النقطة بالذات يكافئ معمار الرواية متغيرات الواقع الفعلي، حيث تعيش المجتمعات العربية في مستوى علاقة الرجال بالنساء كثيراً من التناقضات التي تتعايش فيها قيم الدونية مع قيم التحرر، كما تتعايش صور التمثل والتواطؤ وتبادل الأدوار، فتصبح رواية الواقع دليلاً مساعداً في عملية إضاءة ما يجري في الواقع.

في مستوى علاقة الرجال بالنساء، تعيش المجتمعات العربية كثيراً من التناقضات التي تتعايش فيها قيم الدونية مع قيم التحرر

نعثر في الرواية النسائية على أربع صور للمرأة، المُستلَبة والمناضلة والمتمردة والمتعددة

## الرواية النسائية: بدايات الوعي الفردي ومواجهة ثقافة الدونية

تتخذ صورة المرأة في الإبداع الروائي الذي أنتجته الروائيات العربيات على سمات محددة لا تبلغ درجة توصيف الإبداع بمنطق الجنس والتمايز الجنسي، لكنها تتيح لنا اكتشاف لغة أخرى بل لغات أخرى في مقاربة موضوع دونية المرأة وسبل تجاوزها. هذه محاولات في الكتابة تروم بناء حساسيات لغوية وجمالية داعمة لفضاءات التخيل المبدع في الرواية العربية، وداعمة في الوقت نفسه لقيم تنشأ لتفتت قيماً سائدة. ومنذ صدور رواية "أنا أحيا" (ليلى بعلبكي، 1958)، وما نشر من أعمال لكوليت خوري "أيام معه" و"ليلة واحدة" (1959 و1961)، والأعمال الروائية لغادة السمان وأعمال جيل أحلام مستغانمي وهدى بركات ورضوى عاشور وليلى الأطرش وسحر خليفة وليلى العثمان، على سبيل المثال، نجد أنفسنا أمام ما يوضح جوانب من عناصر التفتيت المذكور. وهناك جملة من العناصر والمعطيات التي تقارب عالم المرأة في المتخيل الروائي، الذي يفترض وجود تقاطع وتداخل بينه وبين واقع المرأة في المجتمع.

وقد عملت بثينة شعبان (1999) على إنجاز متابعة تسجيلية لمضامين كثير من المتون الروائية النسائية، وتابعتها بعناية كبيرة، محاولةً إبراز السمات العامة لهذه الرواية لدورها في تشخيص مظاهر الدونية والإقصاء، ومختلف محاولات التجاوز المقاومة للمظاهر الآنفة الذكر وجسدتها الشخصيات الروائية. وعملت فوزية أبو خالد على تركيب نمذجة رباعية أتاحت لها تجاوز التنميط التقليدي السائد عن المرأة اللغز والمرأة الغواية ثم المرأة الكيد والشرف، ومكنتها من إنشاء مقاربة حولت الوقائع والصور المتعددة إلى أنماط قابلة للتعقل والفهم، بالصورة التي تضع اليد على نماذج محددة من صور النساء المتقاطعة في عوالم الرواية (فوزية أبو خالد، ورقة خلفية للتقرير).

نعثر في الرواية النسائية على أربع صور للمرأة، المُستلَبة والمناضلة والمتمردة والمتعددة، ونقف في كل صورة على عينة من النساء اللواتي يوضحن مسار الصورة، ومجالات تحولها وتطورها وتناقضها أيضاً.

نجد صورة "المرأة المُستلَبة" على سبيل التمثيل لا الحصر في رواية "مسك الغزال" (حنان الشيخ، 1988) و"خديجة وسوسن" (رضوى عاشور، 1989). وهنا لا بد من الإقرار بتعدد بطانات الصورة المستلبة للمرأة في الإبداع الأدبي للكتابة العربية. فهي تتنقل من التقاط صورة الاستلاب المتمثلة في العلاقات اللامتكافئة بين المرأة والرجل، إلى علاقة القهر أمام سطوة البناء الاجتماعي وآلياته كالعادات والتقاليد والبنى القبلية أو الطائفية أو الطبقية والأبوية. ونجد مثالاً على ذلك في "وسمية" التي تخرج من البحر

في عمل ليلى العثمان المبكر لتقدم شفرة أخرى من شفرات التعالق والالتباس بين صورة المرأة المستلبة وبين الواقع (ليلى العثمان، 2000). وفي تنويعات الصورة المستلبة للمرأة العربية، كانت الروائية والقاصة السعودية قماشة العليان في روايتها "أنثى العنكبوت" (قماشة العليان، 2000) شديدة الوفاء للمعنى الحرفي لذلك المثل السعودي المحلي الذي يقول "أكسر للبنت ضلع ينبت لها عشرة" (فوزية أبو خالد، ورقة خلفية للتقرير).

وعن صور "المرأة المناضلة"، يحضر الدور الكفاحي في مجموعة كبيرة من النصوص الروائية من مختلف الأقطار العربية. يحضر في نص "الوطن في العينين" (حميدة نعنع، 1979) ، وفي نص "الغلامة" (عالية ممدوح، 2000). كما يحضر في روايتي سحر خليفة "الصبار" (1976) و"عباد الشمس" (1984) حيث نماذج من المرأة العربية المقاومة في فلسطين المحتلة. أما الروائية اللبنانية حنان الشيخ فإنها تقدم في "حكاية زهرة" (حنان الشيخ، 1980) حياة امرأة شعبية في جنوب لبنان خلال الحرب الأهلية، فنقف على صور المعاناة وأشكال المقاومة المعبرة عن كفاءات الإنسان في مواجهة مصيره الاجتماعي (بثينة شعبان، 1999: 168).

تتكسر، إذن، في صور "المرأة المتمردة" صورة المرأة القنوع الراضية، أو الشيطانة الفاتنة والماكرة. وتتحول المرأة إلى فاعل إيجابي في معارك المجتمع خارج نظام المراتبية الذي تقره القيم المتداولة في الثقافة العربية السائدة، دون عناية بمتغيرات الواقع ومعطياته.

ونعثر في صورة "المرأة المتمردة" على معطيات نصية تشخص دلالة التمرد وأبعاده المختلفة، حيث لا يشكل التمرد قيمة سلبية، بل إنه يتجه لتوجيه طاقة المقاومة نحو بناء قيم جديدة داخل المجتمع. صحيح أن التمرد في العادة يقرأ كرد فعل منفعل على واقع معين. لكن استبطان أبعاده، والوقوف على أوجهه المتعددة، يمكننا من الاقتراب من أهدافه المساعدة في عمليات مواجهة التقليد والتقاليد داخل العلاقات الاجتماعية.

وتقدم الأعمال الروائية التي يمكن إدراجها في باب صور التمرد صرخة احتجاج تعلن فيها النساء المبدعات على لسان الشخصيات الروائية ضرورة إنهاء زمن الطغيان بكل صوره وأشكاله، الظاهر منها والمخفي. ولهذا السبب، يشكل موضوع الحرية في الكتابات المذكورة قاعدة انطلاق مركزية، حيث توجه سهام النقد للتسلط الرجالي والعنف الذكوري، من أجل إسماع الصوت الإنساني المؤنث في تطلعه إلى المساواة والحرية والمواطنة.

في النموذج الرابع والأخير الذي أطلقت عليه فوزية أبو خالد اسم "المرأة المتعددة"، تظهر صورة تستوعب النماذج الأخرى وتتجاوزها. ذلك أن لفظ التعدد هنا يفيد الانشطار والتشظي، كما تحيل بعض إيحاءاته إلى التداخل والتناقض والتواطؤ والتمثل والتردد. فنصبح أمام هذا النموذج في مواجهة شبكة معقدة من صور التعدد التي لا تكتمل إلا لتبدأ وتتواصل، معبرةً عن عمق المخاضات الجارية في الطور الانتقالي الراهن لمجتمعاتنا العربية.

إن التعدد في هذا النموذج من الصور لا يعبر فقط عن ذات المرأة، بل إنه يلامس ذات الجماعة والمجتمع، والمرأة والرجل والمرأة والمرأة. كما يلامس "موضوع العلاقة بين العاطفي والعقلي، الخاص والعام، الواقعي والمأمول"، وفي مختلف هذه الحالات نجد أنفسنا أمام وضع المرأة العربية في حيواته المتنوعة (فوزية أبو خالد، ورقة خلفية للتقرير).

في عمل سحر خليفة "مذكرات امرأة غير واقعية"، تتبدى في النص عملية زحزحة للصورة النمطية للنساء. ويجسد عملية الزحزحة سرد التفاصيل الصغيرة بكثير من العناية، حيث ينفتح النص على امرأة واقعية، وغير واقعية، فنشاهد التعدد في الواحد. نقرأ في بداية الرواية المقطع الآتي: "أنا ابنة المفتش، وبقيت كذلك حتى تزوجت وأصبحت زوجة تاجر، وأحياناً أكون الاثنتين معاً. فحين يسخر الزوج يناديني "يا ابنة المفتش"، وحين يغضب الوالد يناديني "يا امرأة التاجر"". فالتناقض قائم بين الذات الجوهرية الكامنة في الداخل وبين الذات الاجتماعية التي يتقبّلها الآخرون. والبون شاسع بين ما ترتئيه هي كحسن فهم واتزان وبين ما يرتئيه الآخرون. "ولهذا كان يعز عليّ أن أبدو غبيّة، فاحتفظت بتساؤلاتي وانطباعاتي والتواءات شفتي داخل فمي" (سحر خليفة، 1986: 5).

أما في ثلاثية أحلام مستغانمي "ذاكرة الجسد" و"فوضى الحواس" ثم "عابر سبيل" فإننا نواجه عوالم نسائية مركبة، وهو الأمر الذي يكسر وتيرة هيمنة النموذج الذكوري الذي يضع النساء في قالب نمطي واحد (أحلام مستغانمي، 1993 و 1998 و 2004).

تظهر الصورة الرابعة للمرأة في الرواية

تقدم الأعمال الروائية التي يمكن إدراجها في باب صور التمرد صرخة احتجاج تعلن فيها النساء المبدعات على لسان الشخصيات الروائية ضرورة إنهاء زمن الطغيان بكل صوره وأشكاله، الظاهر منها والمخفي

النسائية العربية في أعمال هدى بركات وعلوية صبح حيث نقف على جوانب متعددة من صور الحرب الأهلية في لبنان. وتشخص روايتي بتول الخضيري "كم بدت السماء قريبة" (2000) و"غايب" (2004) واقع المرأة العراقية في ظل أوضاع الحصار ثم الاحتلال الأمريكي، كما تعاين أسئلة التعدد الطائفي (فوزية أبو خالد، ورقة خلفية للتقرير).

في مجمل هذه الأعمال، تزداد مساحة صورة المرأة المتعددة اتساعاً، لتحاصِرَ نماذج الصور التي حولت النساء العربيات إلى نمط واحد مغلق وفقير، نموذج يزداد بؤسه وسط موجات التحول القادمة. ونشاهد في متخيل الرواية هواجس لا يمكن القول إن أبطالها مجرد شخصيات في أعمال روائية، بل إنهم أفراد يواجهون مصيرهم داخل المجتمع بروح إيجابية وتاريخية. وهذه الروح تترجم الرواية العربية بعضاً من أنفاسها الدافقة والحارة، من أجل مجتمع يعترف بالمساواة بين الجنسين.

في مجمل الأعمال، تزداد مساحة صورة المرأة المتعددة اتساعاً، لتحاصِرَ نماذج الصور التي حولت النساء العربيات إلى نمط واحد مغلق وفقير، نموذج يزداد بؤسه وسط موجات التحول القادمة

## صورة المرأة في السينما

### المرأة في السينما، سطحية الصورة ونمطيتها

إن النموذج الأكثر تمثيلاً لواقع المرأة في السينما العربية هو الذي تبلور في الإنتاج المصري، بحكم ما راكمته السينما المصرية من إنتاج سينمائي خلال ما يزيد على سبعة عقود من الزمن. وقد قدمت السينما المصرية ما يعكس نظرة المجتمع إلى ذاته وإلى العلاقات بين أفراده، في ضوء جملة من القيم السائدة والقيم البديلة الناشئة في الواقع الاجتماعي.

وفي الدراسات المنجزة عن صورة المرأة في السينما العربية محاولات بحثية تروم تعيين ملامح الصورة وضبطها. وفي الأبحاث الأولى التي واكبت منجزات السينما المصرية، تتوزع صورة الشخصيات النسائية في الأفلام المنتَجة في الفترة ما بين 1962 إلى 1972، وعددها 410 بالنسب المئوية التالية:

- 43,4% بدون مهنة واضحة
- 20,0% ربة بيت، زوجة، مطلقة، أرملة، عانس
- 20,5% نساء عاملات
- 10,5% طالبات
- 9,5% فنانات
- 5,4% منحرفات

(سمير فريد، ورقة خلفية للتقرير).

إن أكبر هذه النسب وأكثرها دلالة هي نسب النساء اللواتي بدون مهنة واضحة، أي مجرد أنثى. ويمكن القول إن المرأة كأنثى هي الشخصية النسائية بنسبة تزيد على ثمانين في المائة في الأفلام العربية التجارية، وهي الأكثر تأثيراً في الجمهور. والمرأة في هذه الأفلام شيطان ماكر لا تريد غير المتعة خارج أو داخل مؤسسة الزواج، ولا تريد غير الحصول على الرجل، أي رجل، لأن الحصول عليه يعد الهدف الأسمى لكل امرأة (ناهد رمزي، 2004: 177).

وتتيح لنا دراسة ثانية التعرف على أبرز سمات سينما التسعينيات. فانطلاقاً من دراسة 31 فيلماً من إنتاج الفترة من 1990 إلى 2001، يمكن الوقوف على الخلاصات الآتية:

- وجود قصور في طرح وتجسيد صورة المرأة، وحصرها في نماذج متشابهة، والهدف منها مداعبة غرائز الجمهور وإثارته.
- وجود مغالاة في تجسيد العنف الذي تمارسه المرأة، والذي يمارَس ضدها.
- جاء معظم الأدوار الواردة في أفلام العينة، والمتصلة بدور المرأة في الحياة السياسية، سطحياً وغير فعال، إضافة إلى أنه لا يتناسب مع أدوارها الواقعية.
- أغفلت السينما في فترة التسعينات قضايا المرأة الفلاحة والعاملة، وتم التركيز فقط على المرأة العصرية، دون التعرض لمختلف أبعاد شخصيتها من الناحية الإنسانية.
- لم تقدم السينما، طبقا لما جاء في أفلام العينة، نموذجاً للمرأة القدوة التي يعول عليها في الصمود في لحظات مواجهة مشكلاتها.
- غابت عن الأفلام الصور المستقبلية المتعلقة بدور المرأة الاجتماعي والسياسي والثقافي، وهو ما يعني عدم عناية السينما العربية بأسئلة مستقبل تطور أوضاع النساء في عالمنا (سمير فريد، ورقة خلفية للتقرير).

وعلى الرغم مما سبق، يمكن القول بأن السينما العربية أدت أحياناً دورا مهما من خلال توعية الجمهور بقضايا المرأة والظلم الذي لحق بها جراء التقاليد أو القوانين الجائرة. يمكن هنا ذكر فيلم "الأستاذة فاطمة" (1952) لفطين عبد الوهاب (تمثيل فاتن حمامة وكمال الشناوي) عن امرأة محامية تواجه رفض خطيبها فكرة عملها، فتتحدّاه وتثبت كفاءتها في هذا المجال المهني

أدت السينما العربية أحياناً دورا مهما من خلال توعية الجمهور بقضايا المرأة والظلم الذي لحق بها جراء التقاليد أو القوانين الجائرة

والحياتي. يُمكن التوقّف، أيضاً، عند فاتن حمامة، التي أدّت أكثر من دور يتناول واقع المرأة ومعاناتها في الفقر والجريمة والقهر والانكسار: في "دعاء الكروان" (1959) لهنري بركات (تمثيل: فاتن حمامة، أحمد مظهر، أمينة رزق وزهرة العلا) تعاني المرأة ألم الاغتصاب والفقر والتعذيب النفسي والروحي، قبل أن تعثر على الحبّ، درب خلاصها من جحيم الأرض، في رجل مختلف تميّز بإنسانيته. وفي "أفواه وأرانب" (1977) لهنري بركات أيضاً (تمثيل: فاتن حمامة، محمود ياسين وفريد شوقي)، تعيش المرأة واقع الفقر والشقاء، وتواجه قدرها الذي صنعه الرجل (تزوير عقد زواج لقاء مبلغ من المال)، قبل أن تتكشف الحقيقة في اللحظات الأخيرة. وهناك فيلم آخر لفاتن حمامة ألقى ضوءاً على واقع المرأة، من خلال البحث في مسألة الطلاق: "أريد حلاً" (1975) لسعيد مرزوق (تمثيل: فاتن حمامة، رشدي أباظة وأمينة رزق). يروي الفيلم حكاية المرأة التي يستحيل عيشها مع زوجها، فتطلب الطلاق، وتبدأ رحلة العذاب قبل الحصول عليه.

### الحب والحرية والعنف

كانت القضية الكبرى في النصف الثاني من عام 2004 في صفحات الفنون في مصر والعالم العربي على صعيد السينما، هي قضية الفيلم المصري "بحب السيما" إخراج أسامة فوزي، وذلك لتناوله شخصية زوجة قبطية تعاني الحرمان الجنسي بسبب التطرف الديني لزوجها، وتقيم علاقة جنسية مع رجل آخر. منعت الرقابة الفيلم، ثم عادت وصرحت به بعد حذف بعض مشاهده، ثم عادت وخففت من المحذوفات. ولكن شخصيات ومؤسسات مدنية رفعت دعاوى قضائية طالبت فيها بمنع الفيلم. والأهم أن الأزهر وقف مع الكنيسة القبطية ضد الفيلم.

أما القضية الكبرى الثانية فقد حصلت في النصف الأول من عام 2005، وهي تتعلق بالفيلم المصري "الباحثات عن الحرية" إخراج إيناس الدغيدي. وهو فيلم يتناول مشكلات ثلاث نساء من المغرب ومصر ولبنان يعشن في باريس بحثاً عن حريتهن المفتقدة في بلادهن. وقد نشرت عشرات المقالات ضد الفيلم، وأطلق عليه اسم "الباحثات عن الجنس"، وشوهت ملصقاته في الشوارع، وجرت دعوات لمقاطعته. ووجهت للمخرجة العديد من التهم الكاذبة، كما هددت بالقتل.

وفي سورية، أخرج محمد ملص فيلم "باب المقام" عن حادثة حقيقية وقعت في حلب مع بداية القرن الميلادي الجديد، قام فيها شاب سوري بقتل شقيقته لأنها تهوى ترديد أغاني أم كلثوم داخل بيتها. وما دامت تهوى هذه الأغاني فهي عاشقة، ومادامت عاشقة فقد "عابت" على حد تعبير والدها في الفيلم. ورغم مرور ما يقرب من سنة على إتمام هذا الفيلم فإنه لم يعرض حتى الآن.

وفي السياق نفسه، يتزايد الاهتمام في السينما المغاربية (تونس والجزائر والمغرب) بأسئلة كانت تحسب في عداد الموضوعات المحرمة. ويتعلق الأمر بمشكلات العنف الجنسي وانعدام عدالة القوانين، ثم قضايا التهميش والإقصاء، حيث تضع السينما يدها على مظاهر دونية المرأة، وتُشخِّصُها بالصورة والإيحاء والموقف الرافض والناقد. وهو ما يعمق دور السينما الجديدة في خلخلة الهيمنة الذكورية السائدة.

إن أهم ما قدمته السينما العربية في باب مواجهة قيم التراتب الاجتماعي بين المرأة والرجل هو كشفها، بالصورة، لآلية تَمَثُّل النساء لواقع انكسارهن وخضوعهن، حيث يمكن النظر إلى أفلام التكريس باعتبارها أفلاماً في مواجهة قيم الخضوع المتوارثة والمشرعنة بلغة التقاليد البالية.

يمكننا أن نسجل أن السينما العربية تمارس، مثل باقي الفنون، دوراً مزدوجاً. إنها تعمم بطرقها ووسائلها الفنية الخاصة قيم التمييز الجنسي. وتحاول، في الوقت نفسه، وخاصة في السينما الجديدة الناشئة في أكثر من قطر عربي، إرسال رسائل جديدة مواكبة لتطلعات الأجيال الجديدة من النساء، الباحثات عن الحرية وتأكيد الذات، بما يسمح لهن ببلوغ مرتبة الإنسان، دون تنقيص ولا تبخيس.

## المرأة في ثقافة الإعلام

### معركة تعدد صور النساء في الطور الانتقالي للمجتمع العربي

تمارس الثورة الإعلامية حضورها الكاسح في حياة المجتمعات البشرية، وهي تعتبر اليوم، في مختلف الكشوف التي تندرج في إطارها، بمثابة شكل جديد من أشكال المؤسسات الثقافية القادرة على توجيه الرأي العام. وتمارس عوالم الصورة

**يتزايد الاهتمام في السينما المغاربية (تونس والجزائر والمغرب) بأسئلة كانت تحسب في عداد الموضوعات المحرمة**

**تحاول السينما الجديدة الناشئة في أكثر من قطر عربي إرسال رسائل جديدة مواكبة لتطلعات الأجيال الجديدة من النساء، الباحثات عن الحرية وتأكيد الذات، بما يسمح لهن ببلوغ مرتبة الإنسان، دون تنقيص ولا تبخيس**

اليوم تأثيراً كبيراً على مختلف مجالات المعرفة والحياة. كما أن نتائج ما يمكن أن يترتب على ما يحصل في العالم اليوم بفعل إبداعات وكشوف الثورة الإعلامية، قد لا يمكن تقدير نتائجه النفسية والاجتماعية التقدير المناسب إلا في زمن لاحق. ويعود ذلك إلى حداثة التجربة في عالمنا، بل وفي العالم أجمع، بدرجات من التفاوت.

وقد عرف استعمال التلفزيون والانترنت خاصة ازدياداً ملحوظاً في نهاية القرن الماضي وبدايات الألفية الثالثة. كما أصبحت الوسائل الثقافية العصرية تحتل مكانة هامة في معالجة قضايا النساء وفي رسم معالم صور النساء في العقل والوجدان العربيين. فهي تمارس فعلها في تعيين ملامح صور المرأة، بالشكل الذي يحولها إلى فاعل في مشهد التحول القائم في المجتمعات العربية، سلباً وإيجاباً.

يمكن في هذا السياق التحدث عن تأثير المسلسلات التلفزيونية في مناهضة الصورة التقليدية للمرأة أو في ترسيخها. كما يمكن التحدث عن اللقطات السريعة لصور الإعلانات وهي تقدم المرأة في صور ومواقف متناقضة. لكن لا نواجه، في مختلف هذه المواقف، قنوات تلفزيونية عربية فقط، بل شبكة كبيرة من القنوات التي لا تعد، والتي تستقر في البيوت، وتخاطب أهلها بصيغ ولغات ومواقف بينها من التباعد أكثر ما بينها من التقارب والتكامل. ويكشف ذلك عن وجود حرب إعلامية مماثلة لحروب التأويل في الفقه، وحيل البلاغة في الأمثال الشعبية، وجهود تنظيمات المجتمع المدني العربي في توطين مقدمات وأصول الفكر الاجتماعي العصري الداعم لقيم الحرية والمساواة في ثقافتنا وقيمنا الاجتماعية (ناهد رمزي، 2004: 19).

وتكشف متابعة بعض جوانب صور المرأة في الإعلام المرئي أننا أمام معطيات معبرة عن مختلف تناقضات الطور الانتقالي الذي تعيشه المجتمعات العربية. ذلك أن كثيراً من الصور تتعايش بقليل أو كثير من التسامح، وتعمل ديناميات الواقع الاجتماعي في مستوياته الثقافية على إسناد صور ومناهضة أخرى. وفي مختلف الأحوال، يشكل التناقض سمة طاغية على جوانب عديدة من مظاهر صورة المرأة في الواقع وفي المتخيل الجمعي.

ولأن موضوع حضور المرأة في الإعلام العربي يثير أسئلة عديدة فقد يكفي للتمثيل على دوره في إشاعة وتكريس ثقافة دونية المرأة الإشارة إلى بعض برامج الإفتاء. كما تبرز برامج أخرى، بعض الأوجه الإيجابية العاكسة لثقافة التطور والتغيير في المجتمع.

**تساهم شبكات الإفتاء التي يتزايد انتشارها في العالم بفعل منجزات ثورة الإعلاميات في تعزيز كثير من القيم التي لم تعد مناسبة لدرجة التحول الاجتماعي الجارية في المجتمعات العربية**

### الإفتاء وسقف الفقه التقليدي

تقدم أغلب القنوات الفضائية العربية برامج دينية بهدف إشاعة ثقافة إسلامية مواكبة لمتغيرات الحياة، وتضع لها عناوين مباشرة من قبيل "الدين والمجتمع"، "الشريعة والحياة"، و"مشكلات المسلم المعاصر". وتتنعش في هذه البرامج لغة الإفتاء الذي يحول بعض شيوخ الفضاءات العربية إلى نجوم، ويحول جمهور الحاضرين والمشاركين في بلورة أسئلة البرامج إلى ممثلين، بالصورة التي تضفي كثيراً من الحيوية على الجدل، وتحوله أحياناً إلى فضاء لممارسة التأثير المطلوب على المشاهدين.

في برنامج "الشريعة والحياة" الذي تقدمه قناة الجزيرة، على سبيل المثال، يواجه المشاهد موضوعات عديدة تتصل بقضايا الحياة الأسرية والعلاقات بين الجنسين. ورغم المظهر المعتدل الذي تتميز به بعض حلقات هذا البرنامج، فإن أغلب مواقفه تتم بطابع يتجه في نهاية المطاف لتكريس دونية النساء استناداً إلى تأويل محدد لبعض النصوص والعادات القائمة في مجتمعاتنا (مصطفى التوايتي، ورقة خلفية للتقرير).

وإذا كنا نفترض أن التغير الحاصل في مجتمعاتنا يستدعي في الظروف الراهنة فتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام الفقهاء والعلماء المتخصصين في التشريع المناسب لأوضاع المجتمع، فإن شبكات الإفتاء التي يتزايد انتشارها في العالم بفعل منجزات ثورة الإعلاميات تساهم في تعزيز كثير من القيم التي لم تعد مناسبة لدرجة التحول الاجتماعي الجارية في المجتمعات العربية (مصطفى التوايتي، ورقة خلفية للتقرير).

وهكذا لم تستطع الفتاوى المرسلة في أجهزة الإعلام وقنواته الاقتراب من موضوع الاجتهاد في التشريع، وظلت فتاواها مكتفية في الأغلب الأعم بدعم نظام التراتب والتمييز بين النساء والرجال، دون عناية بمستجدات المجتمع ومتغيرات التاريخ. ويعني ذلك حرص الفقهاء الذين توكل إليهم مهمة الإفتاء على المحافظة على النظام الأبوي السائد في المجتمعات العربية، دون أي جهد يذكر في موضوع تحيين الفقه الإسلامي وتطويره في ضوء مستجدات الحياة ومقتضيات المجتمع.

### رسائل إعلامية أخرى لا تسهم في نهوض المرأة

ثمة تنوع شديد، ومتزايد، وحالة من الاستقطاب، في الأنشطة الإعلامية في البلدان العربية حاليا، وهو الأمر الذي تترتب عنه كثير من النتائج السلبية في مجال نهوض المرأة في الوطن العربي.

فمن ناحية، هناك عدد متزايد من قنوات الإعلام المحافظة التي تكرس دونية المرأة. ومقابل ذلك، هناك عدد كبير ومتزايد من القنوات الإعلامية التي تدعي صبغة حداثية وتعكس صورة سلبية للمرأة أساسا كجسد- سلعة سواء كان ذلك في الإعلان أو في الأغاني المصورة الراقصة "الفيديو كليب" التي تحول جسد المرأة إلى بضاعة.

وعلى الرغم من تنوع الرسائل الإعلامية، فإن جزءاً كبيراً منها يحمل قيماً تعبر عن صعود الفرد على حساب المجموعة، على قاعدة الآنية ومتع اللحظة الراهنة. وهذه القيم تربط بالربح السهل والسريع القائم على نوع من التنافس الصانع لأنماط من النجومية التي لا تعنى بقيم الفن الرفيع قدر ما تهتم بالوسائل والصور المساعدة على الربح السريع. بمعنى آخر، غالباً ما تشكل هذه الرسائل إطارا للإعلانات المروجة لحداثة الاستهلاك والمتعة العابرَيْن. ومن الطبيعي أن تكون المحصلة هي تغييب ثقافة الجهد والنفس الطويل، واستبعاد ثقافة التضامن والتعاون وخدمة الغير، وقد اعتبر أحد الباحثين أن الأفلام المشهورة ليست مجرد أفلام فقط بل إنها وسائل وأدوات فعلية لتسويق الغذاء، الموسيقى، الثياب، والألعاب (باربر، بالفرنسية، 1999: 70-74). ويعنينا هنا أن هذه التوجهات كثيرا ما تحط من قيمة المرأة وكرامتها كإنسان.

وكثيرا ما تتبنى هذه الوسائل استراتيجيات ومعايير في العمل والتوظيف، وأساليب للتعامل مع الإعلاميين، ونظرة إلى الجمهور، تنبع من كونها تعمل ضمن نظام إعلامي عالمي تسيره أيديولوجيا رأسمالية أبوية (دافيد، بالإنجليزية، 1996) [1]. هذا عدا عن أنها تعمل في مجتمعات تحكمها مركزية شديدة يتداخل فيها عالم المال بالإعلام بالسلطة، في ظل منافسة محمومة مع فضائيات عربية وأجنبية على سوق إعلانية ضيقة. وذلك ما يجعل هذه الوسائل تلهث، في قسم كبير منها، وراء جمهور عربي، لديها في غالب الأحيان أحكام مسبقة عنه، مستمدة في جزء كبير منها من الوسائل الإعلامية الغربية، دون أن تؤخذ بعين الاعتبار التطورات الحاصلة على صعيد واقع هذا الجمهور والاختلافات التي تحكمه. لذلك استعانت بعض هذه المحطات في بداية إطلاقها الفضائي بالرجال للسياسة، وبالنساء للترفيه، مشكِّلة نمطاً إعلامياً أدى إلى اختزال الإعلاميات على إختلافهن في أولئك المرئيات منهن. غير أن هذا النمط سرعان ما راح ينحسر أمام احتدام لعبة المنافسة، والتطورات على مختلف الصعد، بحيث أن معايير الشكل لم تعد تكفي وحدها لخوض لعبة المنافسة، وأصبح المطلوب مزيداً من الثقافة، وإتقان اللغات، وسعة الإطلاع (نهوند القادري، ورقة خلفية للتقرير).

هناك عدد متزايد من قنوات الإعلام المحافظة التي تكرس دونية المرأة. ومقابل ذلك، هناك عدد كبير ومتزايد من القنوات الإعلامية التي تدعي صبغة حداثية وتعكس صورة سلبية للمرأة أساسا كجسد- سلعة سواء كان ذلك في الإعلان أو في الأغاني المصورة الراقصة "الفيديو كليب" التي تحول جسد المرأة إلى بضاعة

### خلاصة

حاولنا في هذا الفصل تقديم جوانب وأمثلة من الدور الذي تمارسه بعض البنى الثقافية في تكريس، أو مكافحة، دونية النساء في المجتمعات العربية من خلال استعراض معطيات متنوعة من الموروث الثقافي الذي تشكل بعض تأويلاته موقفاً محافظاً وكابحاً لدينامية التطور الحاصلة داخل المجتمع، بينما يرمي بعض مكوناته إلى استيعاب وتوطين مرجعيات الحداثة داخل الثقافة والمجتمع في البلدان العربية.

ومن ثم، لايمكن إغفال الجدلية الحية التي تعكسها تمظهرات الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع العربي. وتعكس المخاضات والتوترات التي تعبر عن تطور أوضاع النساء داخل المجتمع حيويته، وتعبر عن حركية في الوعي وفي المجتمع لا يمكن التقليل من قيمتها. صحيح أن كثيراً من مظاهر الصلابة المتمثلة في استمرار الهيمنة الذكورية، واستمرار مقاومتها لمختلف صور المواجهة، تدل على صعوبات التحول الجاري، إلا أن الاختراقات العديدة التي نشأت وتنشا بفضل وعي الطلائع الفاعلة في قلب المجتمع والثقافة، تمارس ما سيتيح تخطي الأوجه المحافظة في هذه الثقافة. ومن المؤكد أن هذا لن يتم إلا عندما يتجه الجميع لتوسيع آفاق الاجتهاد القادر على إشاعة قيم التنوير ومبادئ التنمية الإنسانية بالصورة التي تمكن من تعزيز مشروع التحرر في المجتمع.

1 أظهرت الدراسات التي قام بها المشروع العالمي لمراقبة الإعلام في سبعين دولة حول مشاركة النساء في الأخبار في يوم واحد أن النساء في الأخبار يشكلن نسبة 43% من الصحافيين ولكن 17% فقط ممن أجريت معهن المقابلات، و29% من اللواتي تجرى معهن المقابلات هن ضحايا لحوادث مختلفة.